الجزء الرابع — المجلد الخامس والأربعون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

تشرين الأول « اكتوبر » سنة ١٩٧٠ م — شعبان سنة ١٣٩٠ هـ

تطور النثر (١)

في العصر العبّاسي

إذا حاولنا الكلام على تطوّر النثر في عصر بني العبّاس فلا نجد لنا مناصاً عن الرجوع إلى صدر الإسلام وعصر بني أميّة حتّى نأنس ولو في خُلسة نظر بقليل من خصائص النثر في السنين التي جاءت قبل بني العبّاس ، فإذا وقفنا ولو بعض الوقوف على شيء من هذه الخصائص استطعنا حينئذٍ أن نصل بين أفقها وبين أفق الخصائص في العصر العبّاسي ، إلاّ أنّنا لا نستطيع الإحاطة بجوهر النثر في صدر الإسلام وعصر بني أميّة من مجامع النواحي ، فإنّ مثل هذه الإحاطة تستلزم بحثاً طويلاً يضيق عنه وقتنا ،

(١) من المحاضرات التي ألقاها في جامعة الكويت في السنة الماضية الأستاذ شفيق جبري عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكنَّا سنكتفي بيسير من الاستشهاد ، ولعلَّ اللغة التي تمهّد لنا سبيلاً إلى الإلمام بهذا النثر إنما هي لغة طائفةٍ من الخطب في أيّام الخلفاء الراشدين وفي الأيّام التي جاءت بعدهم ، وهي زمن الأمويين واذا كنت أهتمّ بهذه الخطب فالسبب في هذا الاهتمام تأثير الخطابة في النفوس ، فمن رجع إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية أدرك ما كان للخطباء من الآثار البالغة في الحضّ على الجهاد والاعتصام بالصبر في مواطن الشدة ، والتبشير بالجنَّة والتخويف من النار ، وغير ذلك من الأمور التي كانت تدور عليها الخطب ، وقد لخَّص لنا الجاحظ في عبارة وجيزة روح هذه الخطب لمَّا قال : ولم أجد في خطب السلف الطيّب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً رديّاً ولا قولاً مستكرهاً ، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولّدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدبين .

من بدائه الأمور أن أبدأ بخطب الرسول ﷺ ، ولكن الجاحظ كفانا مُؤنة وصفها لمَّا قال في كلام الرسول : وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجلَّ عن الصنعة ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد وما أنا من المتكلفين ، فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلاَّ عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلاَّ بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيِّد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق ، إلى آخر ما جاء في هذا الوصف البليغ الذي لا يقدر عليه إلاَّ إمام من طبقة الجاحظ .

وإشارة الجاحظ إلى عيب الرسول للتشديق والتقعير والصنعة والتكلف والغريب الوحشي والهجين السوقي تدلّ على أن هذه الأمور كانت في زمن الرسول ، وربَّما كانت في أحاديث بعض العرب ، أمَّا الخطب التي سنمرّ بها فلا نجد فيها شيئاً من هذا كله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقبل أن أمرّ بقليلٍ من هذه الخطب لا أرى بأساً بأن أذكر ما وجدته في الأدب الفرنسي ، فقد وجدت في هذا الأدب أن « ڤولتير » لم يكن مبدعاً من المبدعين ، أي لم يأت بشيء جديد من الأفكار والمعاني ، فقد كان لا يستطيع أن يسلك مسلكاً إلاّ إذا كان هذا المسلك ممهّداً له ، فقد اغتصب أفكار غيره وجعلها أفكاره الخاصّة ، جعلها ملكه الخاصّ ، فقد قالوا إنه لم يكتب بالفرنسية كاتب أحسنُ من « ڤولتير » إن جمله قصيرة ، سريعة ، وعبارته واضحة ، وأوضح صفات أسلوبه البساطة ، إنه يستخدم لغة كل الناس في أسلوب لا يفوقه أسلوب من حيث الطبع والسهولة .

إذا كنت قد استشهدت في هذا المقام بمقطع من الأدب الفرنسي فلم أستشهد به عبثاً ، فقد أحببت قبل الإشارة إلى بعض الخطباء الراشدين أن أستخلص صفات الكاتب الحسن وهي : قصر الجملة وسرعتها ، ووضوح العبارة وبساطتها ، وطبع الكلام وسهولته .

فلنبحث عن هذه الصفات في بعض النثر الإسلامي والأموي قبل أن نصل إلى تطوّر النثر العباسي .

من كلام أبي بكر يوم السقيفة رضي الله عنه : نحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا على العدوّ ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلاّ لهذا الحيّ من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

ومن كلامه في خطبة ثانية :

أيها الناس إني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إنّ أقواكم عندي الضعيف حتّى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتّى آخذ الحق منه ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

فهل نعرف أقصر من هذه الجمل وأسرع من هذا الكلام وأوضح من هذه العبارات وأبسط من هذا الأسلوب ؟ وسواء أكانت خطبه قصيرة أم كانت خطبه طويلة هذه هي صفاتها ، فالصدق غالب عليها والطبع متمكن منها ، ولذلك كان الكلام مناسباً لهذا الصدق ولهذا الطبع ببساطته ووضوحه وقصره وسرعته ، فأكثر خطب صدر الإسلام هذه هي خصائصها ، إنها أشبه شيء بأوامر قوّاد الجيش ، لا زيادة ولا نقصان ، فكأن سرعتها مطابقة لسرعة الفتوحات التي تمّت في ذلك العصر ، إنها غنيّة عن كل تزويق وكل تنميق ، فهي صادقة صدق تلك الفتوحات ، سريعة سرعتها ، بسيطة بساطتها ، واضحة وضوحها .

وإذا كان لا بدّ من الزيادة فإنني ألجأ إلى بعض كلام الإمام علي كرّم الله وجهه . لمّا أغار في خلافته سفيان بن عوف الأسدي على الأنبار وعليها حسّان البكري فقتله وأزال الخيل عن مسارحها ، فخرج عليّ رضي الله عنه حتى جلس على باب السُّدّة ، فمن كلامه في خطبته : ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فو الله ما غزي قوم قط في عُقْر دارهم إلاّ ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي فاتخذتموه وراءكم ظِهْرياً ، حتّى شُنّت عليكم الغارات إلى آخر الخطبة .

أفرأينا وضوح هذا الكلام وبساطته ، كيف يعبّر أصدق تعبير عمّا كان يعانيه عليّ رضي الله تعالى عنه من جماعته ، فالتناسق مستحكم بين هذه المعاناة الشديدة وبين الكلام المفصح عنها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا حاجة بنا إلى الانتقال إلى الخطب الطوال ، فإن الروح واحدة في القصار منها والطوال ، وإذا كانت قد طالت فإن المقام اقتضى تطويلها ، ولكنّا لا نستغني عن ذكر خطبة قيلت في حدث جليل ، فكانت المثل الأعلى في الصدق والطبع والسهولة والوضوح ، وأريد بها خطبة ابن الزبير في فتح افريقية .

إننا نعلم أنّ فتح افريقيةَ ليس بالأمر القليل في تاريخ المسلمين ، لقد كان هذا الفتح مقدّمة لفتح الأندلس ، وفي الأندلس حضارة العرب وما اشتملت عليه هذه الحضارة من أدب وعلم وفلسفة وعمران ، فمهما يحتفل الخطيب بالكلام ويزوّقه وينمّقه ، ويجمع فيه أساليب البلغاء على اختلاف بلاغتهم ، مهما يفعل من ذلك كلّه فإن كلامه يقصّر عن تصوير هذا الحدث الجليل ، إلاّ أن ابن الزبير لم يلجأ إلى كل هذه الأمور ، فلست أعلم صدقاً في الوصف وبساطة في هذا الوصف ، ووضوحاً في العبارة وإيجازاً في اللفظ وتواضعاً في الإفصاح عن النصر يشبه صدق ابن الزبير وبساطته ووضوحه وإيجازه وتواضعه ، وما علينا بعد هذا إلاّ التمتع من بعض خطبته فلسنا في حاجة إلى ذكرها بأجمعها .

لمّا قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفّان بفتح افريقية أخبره مشافهة وقصّ عليه كيف كانت الوقعة ، فأعجب عثمان ما سمع منه فقال له : يا بنيّ ! أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أهيب لك مني لهم ، فقام عثمان خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن الله قد فتح عليكم افريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ، وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام خطيباً وكان أوّل من خطب إلى جانب المنبر ، وهذا بعض كلامه بعد المقدمة المألوفة في خطب الأولين :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أيُّها الناس رحمكم الله ، إنَّا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكنَّا مع والٍ حافظٍ حفظ وصيَّة أمير المؤمنين ، كان يسير بنا الأبردين ويخفِّض بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جملاً ، يعجِّل الرحلة من المنزل الجَدْب ، ويطيل اللَّبْث في المنزل الخِصْب ، فلم نزل على أحسن حالةٍ نعرفها من ربِّنا حتَّى انتهينا إلى افريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الإبل وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياماً نُجمُّ كراعنا ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأنَّاهم وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا إلى عدوِّنا وقاتلناهم أشدَّ القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالاً من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، والمسلمين دويٌّ بالقرآن كدويِّ النحل ، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصفَّنا الذي كنَّا عليه بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ...

أبرز شيء في هذه الخطبة البساطة والصدق ، والبلاغة بنت الصدق ، فلا تطبيل ولا تزمير ، ولسنا نجد بلاغة في كلام تظهر عليه آثار الكلفة والصنعة أو التنميق والتزويق ، ومن تأثير هذه الخطبة أن صاحبها لمَّا فرغ منها نهض إليه أبوه فقبَّل بين عينيه وقال : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، يا بني ! ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت .

وسنجد الفرق بين هذه الخطبة في فتح افريقية وبين كتاب كتبه القاضي الفاضل عبد الرحمن البيساني إلى الخليفة الناصر لدين الله على لسان صلاح الدين الأيوبي بفتح بيت المقدس ، وذلك في أواخر العصر العبَّاسي ، وإذا كنَّا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا نرى محذوراً في تقديم الكلام على هذا الكتاب قبل بلوغنا إلى عصر بني العبّاس ، فلنقدّمه قبل حينه .

الكتاب طويل لا سبيل إلى الإتيان عليه بحذافيره ، فلنذكر بعض مقاطع منه :

هذه هي فاتحة الكتاب :

أدام الله أيّام الديوان العزيز النبويّ الناصري ، ولا زال مظفّر الجِدّ بكل جاحد ، غنيّ التوفيق عن كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والسيفُ في جفنه راقد ..

وبعد هذه الفاتحة دخل الكاتب في الموضوع ، وهذا مقطع من هذا الدخول وفيه إشارة إلى نعمة النصر ، فإن هذه النعمة :

بحر للأقلام فيه سبح طويل ، ولطفُ الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويُسرى للأسرار في إظهارها مسارب ...

أمّا المقطع التالي فإنه يعرب عن الظفر :

وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدوّ الذي تشظّت قناته شَفقاً ، وطارت فِرقه فرقاً ، وفُلّ سيفه فصار عصا ، وصُدعت حصاته وكان الأكثر عَدداً وحصى ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تُريق نُطف الكرى من الجفون ، وجُدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخةً بالمنى أو راعفة بالمنون .

ولم يكتف الكاتب بهذا الكتاب الطويل الذي لم أذكر منه إلاّ القليل وأقلّ من القليل ، فإن بشائر النصر لا بدّ من إرسال رسولٍ يعرضها على الخليفة مشافهةً :

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخّص ، ولا بما سوى المشافهة تتلخّص ، فلذلك نفّذنا لساناً شارحاً ، ومبشّراً صادحاً ، ينشر الخبر على سياقته ، ويعرض جيش العُشْرة من طليعته إلى ساقته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتاب كله على هذا النمط من التأليف ، وهو الأسلوب الذي استفاض في عصر القاضي الفاضل في أواخر العصر العبّاسي ، ومن الموازنة بين أسلوب ابن الزبير في خطبتـــه وأسلوب القاضي الفاضل في كتابه ندرك الفرق بين البساطة والكلفة ، وبين السهولة والتقعير ، وبين الوضوح والغموض ، وبين الإيجاز والإسهاب ، والخلاصة بين البلاغة الصادقة والبلاغة الكاذبة . لا ريب في أن فتح بيت المقدس ليس بالأمر اليسير في تاريخنا ، وكذلك فتح افريقية ، ولكن هل رأينا كيف كان التعبير عن وصف الفتحين ، وقد أخرج عن موضوعنا ، ولا أرى بأساً بهذا الخروج إذا قلت إن أسلوب ابن الزبير هو الأسلوب الذي يعيش في كل عصرٍ ، وإنّ أسلوب القاضي الفاضل هو أسلوب عصر واحدٍ ، إذا ذهب هذا العصر ذهب الأسلوب معه . ولكن هكذا كانت خصائص التطوّر ، هكذا انتقل النثر من الطبع إلى الصنعة .

فلنرجع الآن بعد هذا الاستطراد السريع إلى عصر بني أميّة بعد عصر الخلفاء الراشدين ، ولكنّا لا نطيل الوقوف في ذلك العصر ، فإنّا نقف على خطبة واحدةٍ أو على خطبتين إذا اتّسع المجال ، ونعني بالخطبة الواحدة خطبة زياد البتراء ، وسنجد أن أسلوبها يختلف بعض الاختلاف عن أسلوب الخطب المتقدمة ، وليس هذا الاختلاف في اللغة والألفاظ ، فإنّ أكثر الخطب القديمـة كانت متقاربة في هذين الأمرين ، فالزمن بين عصر الخلفاء الراشدين وبين عصر بني أميّة ليس ببعيد ، وإنما الاختلاف في دخول عنصر جديد وأعني به العنصر النفسي ، وسنطّلع على هذا العنصر .

قدم زياد البصرة والياً عليها لمعاوية بن أبي سفيان ، فكيف كانت حالة البصرة لمّا قدمها زياد ، يقول رجال التاريخ كان الفسق فيها فاشياً ظاهراً ، فكيف عالج زياد هذه الحالة ، وبأي طراز من الكلام لقي جماهير من طبقات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شتّى ، فيهم أهل البيوتات والأنساب والآداب وفيهم العامّة ، ولا شك في أن اختلاف هذه الطبقات قد خلق نوعاً من المصاعب لزياد ، فكيف يخاطب جماهير تختلف طبقاتهم وتفكيرهم وشعورهم ، فلننظـــر كيف ذلّل زياد هذه العقبة .

افتتح خطبته بهذا الكلام :

أمّا بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغيّ الموفي بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ...

جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء وغَيّ موفٍ بأهله على النار ، هذه هي المقدمة التي لقي بها زياد أهل البصرة ، سفهاءَها وحلماءَها ، صغارها وكبارها .

لا يقعن في خلد أحدٍ أنّا نخرج عن موضوعنا وهو تطوّر النثر إذا دخلنا في تفاصيل هذه الخطبة ، فهمّنا الأكبر إنما هو التنبيه على التناسب بين العنصر النفسي وبين الأسلوب في هذه الخطبة ، لا شك في أن كلاماً مثل كلام زياد ليس من شأنه أن يكون له وقع حسن في قلوب الذين سمعوه ، فليس من الهيّن أن ينسُب الوالي أهل البصرة إلى الجهالة والضلاله والغيّ ، وأن يرضوا عنه ، فكيف حاول زياد أن يصدر عن هذا المورد العكر الذي ورده ، وهنا يظهر لنا الوجه الأوّل من تطوّر أسلوب زياد النفسي ، فبعد أن عاب أهل البصرة بما عابهم به ، بعد أن ظهرت الشدّة على كلامه ، أحبّ أن يستعمل اللين فقال :

كأنّكم لم تقرؤا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعتـه ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلم يجد زياد أبلغ من كتاب الله للاستعانة به على السفهاء والحلماء ، فبعد أن آلمهم بما آلمهم به ، تحصَّن بكتاب الله وهو الحصن الحصين في مثل هذه الحال ، فذكَّر أهل الجهالة والضلالة والغيّ بكريم الثواب وأليم العذاب ، وكأنَّ زياداً قد علم بأن الاستعانة بكتاب الله تمهِّد له السلطان على النفوس ، فتبسط في هذا الضرب من الكلام فقال :

أتكونون كمن طرَفت عينيه الدنيا وسدَّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من تركِكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ...

لقد استعمل زياد طفيفاً من الحكمة في تنبيه أهل البصرة على أعمالهم ، مثل إيثارهم الدنيا وسدّ الشهوات لمساممهم ، فكان كلامه عاماً ليس فيه شيء من التخصيص ، فلم يفاجئ الناس مفاجأة بذكر الأمور التي خالفوا فيها كتاب الله ، ولكنه لم يرد أن يختم عبارته دون ذكر واحدٍ من هذه الأمور ، وهو ترك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، وفي هذا الكلام شيء من إلقاء العداوة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا شك في أن في جملة من سمع خطبته كثيراً من هؤلاء الضعفاء .

فلمّا تمكَّن بعض التمكن من قلوب الناس ، سواء أكان هذا التمكن بالتذكير بكتاب الله أم كان باللجوء إلى يسير من الوعظ ، أم كان بالإغراء بين الأقوياء والضعفاء ، خلا له الجوّ فاستطاع أن يكاشف أهل البصرة ، سفهاءها وحلماءها بأنواع جهالاتهم وضلالاتهم وغيّهم فقال :

ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة ، في النهار المبصر والعدد غير قليل ، ألم تكن منكم نُهاة تمنع الغُواة عن دلج الليل وغارة النهار ، قرَّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كلّ امرئٍ منكم يذُبّ عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معاداً ، ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرقوا ورآءكم كنوساً في مكانس الرِيَب !

والخطبة كلها على هذا النحو من الجمع بين الشدّة واللين ، وهي سياسة زياد ، ولولا خوفي أن تنقلب هذه المحاضرة إلى درس تحليلٍ لتوسعت في الشرح حتى أصل إلى النهاية ، فنرى كيف تفنَّن زياد أكمل تفنن ، كيف يخرج من وعدٍ إلى وعيد ومن وعيد إلى وعدٍ ، لقد تصرَّف في خطبته تصرّفه في سياسته النفسية ، رفق مرَّة وغلظة مرَّة ، وإذا لم تكن غايتنا تحليل خطبة زياد فإن غايتنا التنبيه على تطوّر الأسلوب في هذه الخطبة ، وأعني بهذا التطور المزج بين نعومة الكلام وخشونته ، بين اللين والشدة ، المزج بين العنصر النفسي والعنصر البياني حتى يكون العنصران متناسقين ، لا نرى من ناحية اللغة فرقاً كبيراً بين خطبة زياد وخطب الخلفاء الراشدين من قبله ، قد تكون الأساليب متقاربة ولكن المواقف متباينة ، فلماذا تبسّط زياد هذا التبسط في خطبته ، لماذا تفنَّن هذا التفنن ، إنه والٍ لمعاوية على العراق ، فأقلّ هبَّة من الهبّات تذهب بسلطانه وسلطان معاوية ، وشدَّة أهل العراق معروفة ، فكان لا بدَّ من نمطٍ من الكلام يثبّت الهيبة في القلوب دون شيء من الوحشة ، وزيادٌ فارس هذا الميدان .

وإذا كنَّا نتكلم على أسلوب زياد في خطبته ، فلا ينبغي لنا أن نغفل عن الكلام على أسلوب الحجّاج في خطبته ، ولكنَّا نشير إلى هذا الأسلوب إشارة دون شيء من الإسهاب .

خطب أهل العراق بعد دير الجماجم فقال :

يا أهل العراق ! إن الشيطان قد استبطنكم ، فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشَّغاف ، ثم أفضى إلى المخاخ والصماخ ، ثم ارتفع فعشَّش ، ثم باض وفرَّخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشعركم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤمراً تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجركم إسلام أو ينفعكم بيان ، ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر ، وسميتم بالغدر واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يخذُل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لِواذاً وتنهزمون سراعاً ، ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ، بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبرآءة الله منكم ونكوص وليّكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوي الشيخ على بنيه ، حتى عضّكم السلاح وقصمتكم الرماح ، ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ، بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله ...

والتفت إلى أهل الشام فقال :

يا أهل الشام ! إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ، ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ، ويكنّها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب ، يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء ، وأنتم العدّة والحذاء !

لا ريب في أنّا نرى خطبة تختلف عن نمط الخطب التي مررنا بها ، سواء أكانت خطب الخلفاء الراشدين أم كانت خطبة زياد ، أمّا من ناحية طبيعة الكلام فلا رفق ولا لين ولا نعومة إنها صورة قائلها في سياسته ، في شدته وعنفه ، فالشدّة فيها متسلسلة من أوّلها إلى آخرها ، وأمّا من ناحية الفن فإنّ صاحبها يريد أن يؤثر بالسجع مرّة وإن كان السجع فيها قليلاً وابن الطبع ، وبالصور والمجاز مرّة ، تكاد الخطبة تكون من غير أسلوب العصر الذي عاش فيه الحجّاج ، الإيجاز فيها قليل ، والتفاصيل فيها كثيرة : فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكأن الحجّاج يعرض تبحّره في اللغة ، ويرمي من ورآء هذا التبحر إلى الزيادة في التأثير ، فهو لم يرسل كلامه في بعض المواطن إرسالاً وإنما قطّعه ونغّمه ولا أنغام الموسيقى ! ولست أدري أيجوز لي أن أقول إن هذا النوع من الكلام خلق لبعض عصور العبّاسيين ، فهو بهذه العصور أشبه .

* * *

هذا آخر ما أحببت أن أستشهد به من النثر ، قبل الوصول إلى النثر في أيّام بني العبّاس ، ولست أدّعي أني أحطت بخصائص النثر في زمن الخلفاء الراشدين وبعض زمن الأمويين ، فهذا ما يحتاج إلى بحث أطول ، وتدقيق أشفى واستقصاء أكمل ، فبعض خطب الخوارج ، وبعض خطب الخلفاء الراشدين ، وخلفاء بني أميّة ، قد تخرج عن الإيجاز في اللفظ والسهولة في التعبير ، فيسترسل أصحابها في الكلام حيناً ، ويقطّعونه حيناً ، حتّى يخيّل إلينا أنّا في عصر العبّاسيين ، على أنّا لا نزال في العصر الأموي .

فمن خطبة أبي حمزة الخارجي قوله : قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم !

فهذا النمط شبيه بنمط الحجّاج : فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ...

فإذا مررنا بهذه الأساليب ونظرائها فإنّا نشعر بأنّا لا نزال في العصور التي سبقت عصر بني العبّاس ، فلنبادر إلى الانتقـــال من تلك العصور إلى عصر العبّاسيين .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net